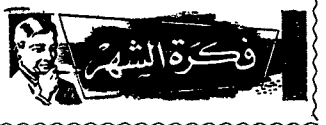

أعطونا إيماناً !

في كل مكان يلحّ الادباء على الحكومات بوجوب تشجيعهم، وترتفع اصواتهم بانهم متروكون مغبونون، وبأن تشجيع الحكومات لهم حق من حقوقهم المقدسة لا سبيل فيه الى تهاون او انكار. وفي كل مكان تجتهد الحكومات في ان « توفّر » للأدباء شيئاً مما توزّع من التشجيع يمنة ويسرة، ولا يفوتها ان تتباهى إن لم يكن تصريحاً فتلميحاً بهذه الرعاية لحملة القلم وخدم الفكر.

اما شكل هذا التشجيع فهو على ما يبلغه علمنا يتخذ مظهرين لا ثالث لهما: المظهر الاول منح وسام اكثر ما يحلى به صدر الأديب ميتاً، والمظهر الآخر قدر من المال يصرف من الميزانية للأديب او لجماعة من اهل الأدب.

وهذا المظهر الآخر لتشجيع الأدب هو الغالب اليوم. ومردّه على وجه التحقيق الى اعتقاد الحكام والكثير من الادباء ايضاً ان الأديب لا يفتقر الى شيء كافتقاره الى « الماديات »، وان الماديات هي التي تزيل السداد عن ينبوع وحيه فيتفجر صافياً ويتدفق ثراً سخياً.

ويقول لك الحكام والكثير من الأدباء إذا انت شككت في صحة اعتقادهم هذا وعلّقت عليه علامة الاستفهام، أجل يقول لك هؤلاء وهؤلاء: أما انت من مؤرخي الأدب؟ ألست تعلم ان لولا عطايا هرم بن سنان والحارث بن عوف لم تدرّ قريحة زهير ولم يبلغ من الاحسان مبلغاً، وان لولا عطايا سيف الدولة بن حمدان لم يكن المتنبي ذلك الشاعر؟

فيا للخطأ الكبير في النظرة الى الماضي يجر الى الخطأ الكبير في النظرة الى الحاضر وبالتالي المستقبل! حقاً لقد اعطى هرم والحارث زهيراً المزنيّ مالا. ولست اعلم مقدار الأثر الذي كان لذلك المال في شاعرية زهير فأثارها وألهمها. ولكني اعلم يقيناً ان هرماً والحارث اعطيا زهيراً ما هو فوق المال. احزنت الشاعر حرب عبس وذبيان وتفتحت ابواب نفسه على مصاريعها لرياح اليأس تهب عليه مجمدة صقيعية من جراء ما يشهد من السفه والطيش والدم المسفوك. فأعطاه هرم والحارث بدفعهما الديات وحقن الدم واقرار الصلح، اجل، اعطياه إيماناً بأن العقل والمروءة والمعروف لم تذهب من الناس. وذلك هو خير عطاء اخذه زهير من السيدين وزكت به شاعريته واغتذت.

وما يصدق على زهير في شأنه وهرماً والحارث يصدق كذلك على المتنبي وسيف الدولة. فان شاعر العرب الأعظم، الذي سبق له في نشأته ان بعث من اعماقه مثل هذه الصيحة الجارحة:

وإنما الناس بالملوك ولا ... تصلح عرب ملوكها عجم
لا ادب عندهم ولا حسب ... ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل ارض وطأتها امم ... ترعى بعبد كأنها غنم!

استراحت نفسه الى الامير الحمداني لما وجد له من هم ومناقب أمّل منها للعرب نهضة من كبوتهم في ذلك العصر، فقال له:

كلٌّ يريد رجاله لحياته ... يا من يريد حياته لرجاله

وقال:

احبك يا شمس الزمان وبدره ... وإن لامني منك السهى والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر ... وليس لأن العيش عندك بارد!

أعطى سيف الدولة المتنبي مالاً حتى قال له: « وأنعلت افراسي بنعماك عسجداً » ولكن ذلك المال كله لم يكن شيئاً يقاس بالعطاء الآخر: بالايمان الذي ايقظه الامير الحمداني في نفس ابي الطيب ان العرب لم ينقطع منهم الخير حتى جادت عبقريته بتلك الروائع الخوالد التي كأنها النقش في لوحة الدهر.

فيا حكام العرب وملوكهم في كل صقع من هذه الاصقاع الذي تسأل العافية: إذا شئتم ان تعطونا شيئاً نحن الادباء فاعطونا يرحمكم الله ولو بعض إيمان بأن هذه السفينة التي وكلت اليكم قيادتها في هذا العصر العاصف ليست تسرع تحت ايديكم الى الاصطدام بالصخور المهلكة!

ان اميراً من امراء العرب اعطى شاعراً معروفاً من شعرائنا هو الاخطل الصغير مالاً كثيراً، يشجعه به، فماذا كانت ثمرة ذلك العطاء؟ قصيدة او قصيدتين من رث الشعر في المدح التقليدي، وليعذرني الاخطل!

أما ابراهيم هنانو البطل الوطني العربي فما اعطى الاخطل شيئاً، ومع ذلك فمن يقرأ شعر الاخطل الصغير يجد فيه قصيدة في هنانو هي من الاخطليات الروائع.

قلت: لم يعط هنانو الاخطل شيئاً. استغفر الله! بلى، اعطاه إيماناً واعجاباً بشخصيته ونضاله وتضحيته. وهذا في مقياس الأدب مصدر للالهام أخصب وأغزر من مال الدنيا كلها.

اعطونا إيماناً بكم وإعجاباً بنضالكم وتضحياتكم يرحمكم الله!

رئيف خوري